سيميائية العنوان و دلالته في القصة القصيرة
نهاية لحفناوي زاغز أنموذجا

أ.مهاجي فائزة

جامعة بلعباس

الملخص:

إن ما يميز أي نص أدبي، هو وجود عنوان يعتلي أفقه ليحمل مضمونه، فالعنوان جزء لا يتجزأ من فحوى النص ودلالته، (فأي عنوان لأي كتاب يكون عبارة صغيرة، تعكس عادة عالم النص المعقد الشاسع الأطراف)[1]، لأنّ العنوان بالنسبة للقصة القصيرة يمثل ناطقها الرسمي، والنائب عنها، فلا يمكن المباشرة في تحليلها مالم تكن هناك إشارة إلى تحليل بنية العنوان وما يوارى عنه، فالعنوان تلك اللافتة، التي ترمز للنص أو هو ذلك الهرم، قاعدته النص وقمته العنوان، لأنه أول ما يصادفك، فلا ترى قاعدته إلاّ بعد الاقتراب منه.

من هذا المنطلق نطرح تساؤلات متعلقة بمضمون الموضوع:

لماذا ندرس العنوان؟ و هل النص يسبق العنوان أم العكس؟ و ما هي دلالته إزاء التحليل السيميائي؟

الكلمات المفتاحية:السيمياء، سيميائية العنوان، الدلالة، القصة القصيرة، حفناوي زاغر.

تعد العناوين المفاتيح، التي تفتح من خلالها المنافذ الموصلة إلى الحقيقة المخبأة في محتوى النصوص الإبداعية، سواء كانت شعرية أم نثرية و (أبرز مفتاحين مؤشرين لوظيفة اللغة في إنتاج دلالة الخطاب الروائي الواقعي يتمثلان في مؤشر العناوين)[2].

كما ينبغي الإشارة إلى أن العناوين مرتبطة ارتباطا وثيقا (بقصدية أو مقصدية المؤلف، فاختيار عنوان مميز لأي عمل إبداعي لا يكون اعتباطيا و إنما هو مبني على القصدية، يهدف القاص من ورائه إلى غايات آنية و أخرى لاحقة يحملها قيّما، و رؤى و يضمنها مواقفا و تجاربا فكرية و شعرية)[3]، مما يؤكد أن عنوان النص لا يأتي من العدم والفراغ، فهو نتاج ثقافة المؤلف وخلاصة تجاربه، قناعاته واتجاهاته وحتى أفكاره، فيصبح بذلك همزة وصل بين صاحب النص و الموضوع و القارئ، الذي يتلقى هذا الموضوع.

كما حظيت العناوين بكثير من العناية و الاهتمام في المقاربات السيميولوجية، باعتبارها أحد الآليات و الإجراءات الأساسية، على الباحث أن يحسن قراءتها و تأويلها، لأن الحقل السيميائي يسعى إلى استجلاء المضامين العميقة، والكشف عن الخبايا والخلفيات، التي ليست في متناول القارئ العادي ودراسة العنوان من منظور سيميائي في الدراسات النقدية الحديثة و المعاصرة هي من مستجدات العصر ومتطلباته، بحيث يمتاز العنوان

في الاتجاه السيميائي وصلته بالنص كتلك العلاقة الحميمية لا يمكن الفصل بينهما خاصة على المستوى التحليلي، لأن العنوان يثير تساؤلات لا نجد لها إجابة إلا في النص.

مع العلم أنه يظهر على واجهة الكتاب للإغراء و محفز للقراءة، استنادا لهذا المعطى (تنهض علاقة العنوان بالنص على أساس التضمين المتابدل)[4]، فالنص يمثل جوابا على الأسئلة التي يثيرها العنوان، و هي مبدأ العملية الإبداعية التي تؤسس محورين أساسيين (العنوان– نص)، أي أن العنوان نواة مركزية له إيحاءات و دلالات توجد إلا في عالم النص.

أما علاقة العنوان و النص مرهون بفعل القراءة لأنه لا يمكن أن نفهم النص إلا عن طريق القراءة، و التي اهتمت بهذا المجال نظرية القراءة و سميت بفضل المدرسة الألمانية "كونستانس" "بجمالية القراءة أو التلقي"، و تفصح هذه النظرية على أن علاقة المؤلف والنص غير كافية لفهم أغوار النص، بل يتعدى ذلك، لأن العلاقة بين النص و القارئ هي مثل (الحروف الميتة من دون قراء، لأن القارئ هو المقصود من أي كتابة و هو الذي يعيد تشكيل النص و يصنع دلالته من جديد لأن القراءة تفاعل بين موضوع النص والوعي الفردي).[5]

ساهمت نظرية التلقي في تحليل العنوان بدون إهمال فعل القراءة، لأنها عنصر فعال في بنية النص، أضف إلى ذلك أن فعالية العنوان لا تستجيب مع معطيالت الإجراء التحليلي إلا عن طريق قنوات الاتصال أو رسالة يبثها المرسل إلى المرسل إليه، و تكون مشحونة بشفرة لغوية يحللها المستقبل، و يترجمها و يؤولها بلغته، كما يبعثها عبر جسر دورها و وظيفتها الحفاظ على الاتصال، و يمكن تجسيد هذه الوظائف ضمن الوظائف الست التي تحدث عنها ("رومان جاكبسون"وهي الوظيفة المرجعية الانفعالية والافهامية، و الشعرية أو الجمالية و التنبيهية، و الانعكاسية).[6]

كل وظيفة تختلف عن الأخرى و تكون متفاوتة في رسالة واحدة بحسب صيغة ونمط الاتصال، و حتى تتضح رؤية النص، انطلاقا من فهم مضمون الرسالة، يستلزم الاعتماد على أحد هذه الوظائف، فهما أدوات التحليل السيميائي الأساس.

لكن يرى "جيرار جينت" في كتابه "عتبات" أن العنوان هو النص الموازي أو الملحقات النصية (Les paratextes) كالعنوان، و العنوان الفردي، والعناوين الداخلية، والمقدمات والملحقات.....، وأنواع أخرى من العلامات الثانوية والإشارات الكتابية يظهر أن العنوان يحتل مكانة مهمة داخل حقل العتبات، لاعتباره (مفتاحا إجرائيا و مدخلا أساسيا لأي نص وحلقة أساسية ضمن حلقات بنائه الاستراتيجي، كما أنه يمثل نواة دلالية تؤسس للنص و تهبه مشروعية الوجود و منه تنطلق الشرارة الأولى للقراءة).[7]

هذا ما يفسر أن العنوان له قيمة معرفية في تشريح وتفكيك النص ودراسته، ويقدم زادا ثمينا لفهم ما غمض و غفّل عنه النص، وعليه يفترض أن ندخل قصة جزائرية قصيرة موسومة بـ "نهاية" و هي مقتبسة من سلسلة أشواق للكاتب الجزائري "حفناوي زاغز"، التي تضم عشرة قصص قصيرة، اختصرت تجربة اثنين و عشرين

سنة من الإبداع القصصي، و أهم سمة تعتليها، هي أنها تجنح إلى الثورية، و تروي أحداثها الواقع الجزائري إبان الثورة التحريرية المجيدة، و هي مليئة بالخصائص الفنية ذات أبعاد عميقة، و لعل ما أعطاها هذه الميزة الخاصة هو اعتناء الكاتب بالقضية الوطنية في فترة من فترات الاستعمار، و هاجس الثورة الذي كان يلاحقه في كتاباته.

كما نلفت الانتباه أن قراءة قصص "الحفناوي زاغز"، أنها تحظى بعمل جاد مخطط، غير مفتعل، و تجد داخل هذه الأقاصيص لحمة و تلك الأنفاس الجزائرية، التي طالما أراد البوح بها إلى القراء من أجل خدمة الأفكار و خدمة الحركة القصصية ذاتها.

و في هذا الإطار، ارتأينا أن نستعين بعلم "التترولوجيا" (La titrologie) أو علم العنونة كتقنية أتحاور من خلالها مع النص، محاولة استنطاق هذا العنوان واستكناه أبعاده الدلالية، والرمزية وتفكيكها، على اعتبار أن العنوان هو المفتاح أو البوابة، التي تلج بها إلى أغوار النص.

كنما يعرف "ليوهك" "Leo Hoek" المؤسس لعلم العنونة العنوان بأنه (مجموع العلامات اللسانية التي يمكن أن تدرج على رأس نص لتحدده، و تدل على محتواه العام، و تعرف الجمهور بقراءته).[8]

بالفعل العنوان ظاهرة لغوية تتصدر النص، و علامة سيميائية ترمز إلى دلالة ومعان يستفز بها الجمهور المتلقي.

انطلاقا من هذه القفزة النظرية التي أظهرت أن مهمة العنوان لغوية دلالية ووظيفة إغرائية، علامة سيميائية، تتجسد الدراسة التحليلية في عنوان القصة الذي هو موضوع الدراسة "نهاية" ذو بنية إفرادية، يمكن اعتباره بنية لغوية دالة و مؤسسة تفرز دلالات كثيرة، فكل شيء في هذا الكون يقوم على توليد البدايات و النهايات، وكل بداية في الأصل كانت نهاية، و كل نهاية تنبئ بميلاد بدايات تبعث الأمل والفجر الجديد مما يهيء الأرضية الخصبة لتحليل هذا النوع، و ما يقتضيه من تأويلات.

فنجد المحاولة في تعويض ما فات، و ذهاب الحزن و اليأس، أما المكان فهو الرجوع ربما إلى ما كانت عليه العائلة، و محاولة جمع الشتات المتناثر، ولم شمل الأسرة، وإن فقدت عنصرين هامين أسهما في تغيير مجرى الحياة، هما الأخوين "خالد"و"حسناء"، و لأن الصيغة التي ركب بها العنوان هي صيغة النكرة، التي هي إنكار الشيء و في النحو هي نقيض المعرفة، لكن نأخذ المعطى الحدثي، ممثلا في التغيير كمؤشر افتراضي يحتاج إلى تفسير بناء على مضمون النص، لأن هذا العنوان تجريدي يغلب عليه الطابع المأساوي المؤسس على حدث الموت، الذي أصاب الأسرة (موت حسناء)، و يمثل الاستعمار سمة النكران و عدم الاعتراف بهذا الوطن أو الشعب لهذا جاء العنوان على صيغة النكرة.

كما يظهر أنه لم يعنون بصيغة المعرفة عكس النكرة، لأن مصير هذه العائلة مجهول إما بالصمود حتى الانفراج أم الاستسلام للمستعمر و اليأس.

و تثير هذه المسألة، كمنا يقول "صلاح فضل" بأنه عن طريق العنوان (تتجلى جوانب أساسية أو مجموعة من الدلالات المركزية للنص الأدبي، مما يجعلنا نسند للعنوان دور العنصر الموسوم سيميولوجيا في النص، بل ربما كان أشد العناصر رسما)[9]، من هنا تبدو ما للعنوان من أهمية، كما أن الذي يلفت الانتباه هو أن "نهاية" كوحدة لسانية تجعل القارئ يتساءل: هل تعني هذه النهاية نهاية القصة المطروقة؟ أم نهاية أزمة؟ أم نهاية حقبة تاريخية معينة؟ أم نهاية أجواء و ظروف عاشتها الأسرة؟ أم أنها نهاية مأساة؟ أم أن النهاية هي بداية لأحداث جديدة؟ أم ما هو المقصود بهذه النهاية؟

يمكن الإجابة على هذه الإشكالات بإضفاء الجانب الذاتي فيها: و تبقى مجرد قراءة لأن باب التأويل مفتوح و قد تكون هناك قراءات مغايرة تماما لهذه القراءة، فبعد التعمق في هذه القصة نجد تواصلين بين عنوان القصة، و مضمون القصة، فهو يضمن فترة من الفترات الثورة الجزائرية إضافة إلى ذلك فهذه القصة إلى جانب قصص أخرى لـ "حفناوي زاغز"، حددت لنفسها مهمة توعية الشعب، و بث روح النضال في أعماقه تماشيا مع مبادئ الكاتب الثورية...

و عليه فهذه النهاية هي نهاية القصة المطروقة من خلال نهايات مختلفة:

النهاية الأولى: نهاية الاستسلام و العمل الثوري من خلال الابن "سليم".

النهاية الثانية: نهاية البطالة و التخلص من العجز من خلال قرار "الأب" بالعمل بعدما أصيب بإعاقة من طرف رصاصة المستعمر.

النهاية الثالثة: نهاية مأساوية تمثلت في موت الابنة "حسناء".

النهاية الرابعة: أن هذه النهاية، هي بداية لأحداث جديدة كلّها عزة مكللة بمستقبل مشرف.

كما نلحظ طبيعة النص تفرض هذا النوع من الإجراء، الذي يتدرج إلى مستويات ذات رموز و إشارات و علامات، و ما يتخلله من عبارات و ألفاظ للكشف عن دلالتها و محاولة الإمساك ببعض المفاهيم المشتركة.

عنوان ⟵ نص أو نص ⟵ عنوان.

إذن، ضمن هذا التوجه، تنضوي دلالات داخل هذه القصة القصيرة، لابد من رصدها و الإشارة إليها من خلال النص و أهم العلامات السيميائية لهذا العنوان هي:

العنوان الرئيسي: نهـاية

↓

العناوين الفرعية

المعاناة و الحزن و الأسى:

- ذبالة مريضة .....(ص 217).
- يعتصرها الألم و تمزق أحشاءها الأوجاع ....(ص 217).

- أنياب الجوع و التشرد ....(ص 218)
- ترزخ تحت هذه الأحمال من الهم و الغم دون أمل مرتقب.... (ص 222)
- صك عبودية ....(ص 223)

السواد و الظلام:

- نور شاحب ....ص 217)
- تتحدى الليل و التعب ....(ص 217)
- ألفت الليل ....(ص 217)
- اليوم الأخير المشؤوم.... (ص 219)
- الأنفاق و الكهوف و المخابئ ....(ص 219)
- كسقط المتاع داخل مهرئة الألوان ....(ص 221)

المكان و النفي – الفقر:

- متسللين كاللصوص بين التلال و الأحراج ....(ص 218)
- الابتعاد عن همجية الاستعمار ....(ص 220)
- ملاذا يأوون إليه ....(ص 220)
- غرباء لاجئين ....(ص 223)

الصوت و الصراخ:

- ارتفع صوت "سليم" مفرقعا كسوط في فضاء الخيمة... (ص 223)
- انهالت عليهم كرذاذ نافورة ماء... (ص 223)
- صوت الثورة يناديني... (ص 223)
- أف للحفر و اللعنة على عيش المسغبة و الانحناء (ص 223)
- الكلمات مستعرة لاهية (ص 224)
- تنهدت الجدة... (ص 225)

التفاؤل و الأمل:

- فأشرق في نفسها فجر الأمل ....(ص 220)
- و زغردت كالعصافير أحلام النص.... (ص 220)
- بسمة عميقة طويلة... (ص 220).
- فجر يؤذن بالانبلاج.... (ص 222)
- سأقتحم الرذى.... (ص 226)

- تراقصت أفنان الشجر ....(ص 229)
- اشتعلت أحاسيس كألسنة اللهب وتراقصت أمامه صور متباينة من أحلام المستقبل وذكريات الماضي و أشجان و أتراح الماضي ....(ص 230)
- أنتشل أسرتي من الضياع.... (ص 230)

بناء على هذه التخريجات الدلالية وإدراك التشابكات بين دلالة العنوان ودلالات يمكن أن نجسد هذه الدراسة في المربع السيميائي، كالتالي:

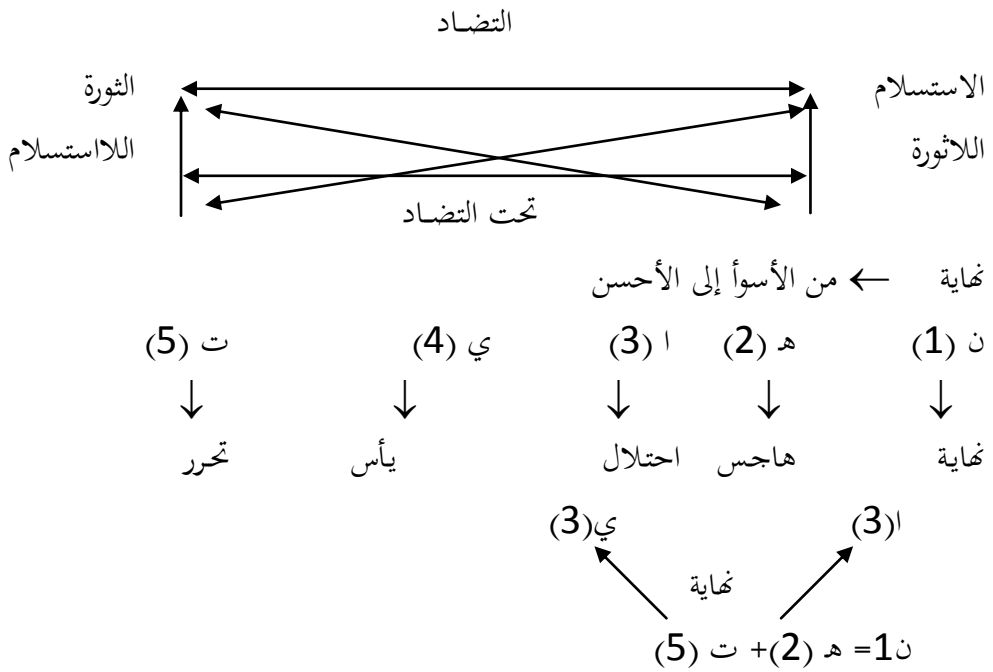

تكمن أهم النتائج فيما يلي:

1- العنوان أداة إجرائية تمكننا من ولوج النص لفهم عذابات النص.

2- العنوان له وظيفة رمزية متفتحة على كل تأويل.

3- يغلب على النص القصصي "نهاية" الوظيفة الإيحائية التي تنهض على الإيحاء بالمعنى داخل النص وتكشف عن دلالات عميقة.

4- عنون الكاتب عنوان القصة "نهاية" بتركيبة مفردة حتى يوسع دائرة التحليل والتأويل أمام القارئ.

5- يتمتع العنوان بمعجم سردي ثري يعكس جو البؤس و المعاناة الذي استقاه من خلال التجربة المثقلة بالعامل الثوري و القضية الوطنية التي انعكست على كتاباته.

6- و أخيرا، يمثل عنوان "نهاية" خطابا قصيرا يمارس عليه الغواية (Séductive) هدفه استفزاز القارئ.

[1]– عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية (زقاق المدق) لنجيب محفوظ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 277.

[2]–عثمان بدري، وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ (دراسة تطبيقية)، موفم للنشر و التوزيع، الجزائر، 2000، ص 28.

[3]– ملاح بناجي، آليات الخطاب النقدي المعاصر في مقاربة القصة الجزائرية (دراسة في قراءة القراءة)، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2002، ص 105.

[4]– كمال بن عطية، سؤال العتبات في الخطاب الروائي، دار الأوراسية للطباعة و النشر، ط1، الجزائر، 2008، ص 32.

[5]– حميد لحميداني، القراءة و توليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، الدار البيضاء، 1994، ص 13.

[6]– ينظر: مازن الوعر، مقدمة علم الإشارة– السيميولوجيا– لبيير جيرو، ترجمة: منذر عياش، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، ط1، 1988، ص 30.

[7]– كمال بن عطية، سؤال العتبات في الخطاب الروائي، ص 3.

[8]– محمد الهادي المطوي: شعرية عنوان الكتاب السابق هي الساق، مجلة عالم الفكر، مجلد 28، الكويت، 1998، ص456، نقلا عن: G. Genette ; Seuils, Paris, 1987,p 73.

[9]– ينظر: عثمان بدري، المرجع السابق، ص 30.